مصطفى صادق الرافعي

مولده:

ولد مصطفى صادق الرافعي على ضفاف النيل في قرية بهتيم من قرى محافظة القليوبية بمصر في يناير عام (١٨٨٠م)، لأبوين سوريين، حيث يتصل نسب أسرة والده بعمر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، في نسب طويل من أهل الفضل والكرامة والفقه في الدين. وقد وفد من آل الرافعي إلى مصر طائفة كبيرة اشتغلوا في القضاء على مذهب الإمام الأكبر أبي حنيفة النعمان حتى آل الأمر أن اجتمع منهم في وقت واحد أربعون قاضيًا في مختلف المحاكم المصرية، وأوشكت وظائف القضاء أن تكون حكرًا عليهم، وقد تنبه اللورد كرومر لذلك وأثبتها في بعض تقاريره إلى وزارة الخارجية البريطانية.

أما والد الرافعي الشيخ عبد الرزاق سعيد الرافعي فكان رئيسًا للمحاكم الشرعية في كثير من الأقاليم المصرية، وقد استقر به المقام رئيسًا لمحكمة طنطا الشرعية، وهناك كانت إقامته حتى وفاته، وفيها درج مصطفى صادق وإخوته لا يعرفون غيرها، ولا يبغون عنها حولًا.

أما والدته فهي من أسرة الطوخي وتُدعى «أسماء» وأصلها من حلب، سكن أبوها الشيخ الطوخي في مصر قبل أن يتصل نسبهم بآل الرافعي، وهي أسرة اشتهر أفرادها بالاشتغال بالتجارة وضروبها.

ثقافته وأدبه:

لهذه الأسرة مورقة الفروع ينتمي مصطفى صادق الرافعي، وفي فنائها درج،

وعلى الثقافة السائدة لأسرة أهل العلم نشأ؛ فاستمع من أبيه أول ما استمع إلى تعاليم الدين، وجمع القرآن حفظًا وهو دون العاشرة، فلم يدخل المدرسة إلا بعدما جاوز العاشرة بسنة أو اثنتين، وفي السنة التي نال فيها الرافعي الشهادة الابتدائية وسنه يومئذٍ ١٧ عامًا أصابه مرض التيفود، فما نجا منه إلا وقد ترك في أعصابه أثرًا ووقرًا في أذنيه لم يزل يعانيه حتى فقد حاسة السمع وهو بعد لم يجاوز الثلاثين.

وكانت بوادر هذه العلة هي التي صرفته عن إتمام تعليمه بعد الابتدائية، فانقطع إلى مدرسته التي أنشأها لنفسه وأعد برامجها بنفسه، فكان هو المعلم والتلميذ، فأكبَّ على مكتبة والده الحافلة التي تجمع نوادر كتبُ الفقه والدين والعربية؛ فاستوعبها وراح يطلب المزيد، وكانت علته سببًا باعد بينه وبين مخالطة الناس، فكانت مكتبته هي دنياه التي يعيشها وناسها ناسه، وجوها جوه، وأهلها صحبته وخلانه وسمّاره، وقد ظل على دأبه في القراءة والاطلاع إلى آخر يوم في عمره، يقرأ كل يوم ٨ ساعات لا يكل ولا يمل كأنه في التعليم شادٍ لا يرى أنه وصل إلى غاية.

نتاجه الأدبي والفكري:

استطاع الرافعي خلال فترة حياته الأدبية التي تربو على خمس وثلاثين سنة إنتاج مجموعة كبيرة ومهمة من الدواوين والكتب أصبحت علامات مميزة في تاريخ الأدب العربي.

دواوينه الشعرية:

كان الرافعي شاعرًا مطبوعًا، بدأ قرض الشعر وهو في العشرين، وطبع الجزء الأول من ديوانه في عام (١٩٠٣) وهو بعد لم يتجاوز الثالثة والعشرين،

وقد قدَّم له بمقدمة بارعة فصَّل فيها معنى الشعر وفنونه ومذاهبه وأوليته. وتألق نجم الرافعي الشاعر بعد الجزء الأول، واستطاع بغير عناء أن يلفت نظر أدباء عصره، واستمر على دأبه فأصدر الجزأين الثاني والثالث من ديوانه، وبعد فترة أصدر ديوان النظرات، ولقى الرافعي حفاوة بالغة من علماء العربية وأدبائها قلَّ نظيرها، حتى كتب إليه الإمام محمد عبده قائلًا: «أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفًا يمحق الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل».

كتبه النثرية:

قلَّ اهتمام الرافعي بالشعر عما كان في مبتدئه؛ وذلك لأن القوالب الشعرية تضيق عن شعوره الذي يُعبِّر عن خلجات نفسه وخطرات قلبه ووحي وجدانه ووثبات فكره، فنزع إلى النثر محاولًا إعادة الجملة القرآنية إلى مكانها مما يكتب الكُتَّاب والنشء والأدباء، وأيقن أن عليه رسالة يؤديها إلى أدباء جيله، وأن له غاية هو عليها أقدر، فجعل هدفه الذي يسعى إليه أن يكون لهذا الدين حارسًا يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال، وينفخ في هذه اللغة روحًا من روحه، يردها إلى مكانها ويرد عنها فلا يجترئ عليها مجترئ، ولا ينال منها نائل، ولا يتندر بها ساخر إلا انبرى له يبدد أوهامه ويكشف دخيلته. فكتب مجموعة من الكتب تعبر عن هذه الأغراض عُدت من عيون الأدب في مطلع هذا القرن، وأهمها:

١- تحت راية القرآن: المعركة بين القديم والجديد: وهو كتاب وقفه -كما يقول- على تبيان غلطات المجددين الذين يريدون بأغراضهم وأهوائهم أن يبتلوا الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم، وهو في الأصل مجموعة مقالات كان ينشرها في الصحف في أعقاب خلافه مع طه حسين الذي احتل رده على كتاب

«في الشعر الجاهلي» معظم صفحات الكتاب.

٢- **وحي القلم**: وهو مجموعة من مقالاته النقدية والإنشائية المستوحاة من الحياة الاجتماعية المعاصرة والقصص والتاريخ الإسلامي المتناثرة في العديد من المجلات المصرية المشهورة في مطلع القرن الماضي مثل: الرسالة، والمؤيد، والبلاغ، والمقتطف، والسياسة، وغيرها.

٣- **تاريخ الأدب العربي**: وهو كتاب في ثلاثة أجزاء؛ الأول: في أبواب الأدب والرواية والرواة والشواهد الشعرية، والثاني: في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وأما الثالث: فقد انتقل الرافعي إلى رحمة ربه قبل أن يرى النور؛ فتولى تلميذه محمد سعيد العريان إخراجه، غير أنه ناقص عن المنهج الذي خطه الرافعي له في مقدمة الجزء الأول.

٤- **حديث القمر**: هو ثاني كتبه النثرية، وقد أنشأه بعد عودته من رحلة إلى لبنان عام (١٩١٢)، عرف فيها شاعرة من شاعرات لبنان (مي زيادة)، وكان بين قلبيهما حديث طويل، فلما عاد من رحلته أراد أن يقول فكان «حديث القمر».

٥- **كتاب المساكين**: وهو كتاب قدَّم له بمقدمة بليغة في معنى الفقر والإحسان والتعاطف الإنساني، وهو فصول شتى ليس له وحدة تربطها سوى أنها صور من الآلام الإنسانية كثيرة الألوان متعددة الظلال. وقد أسند الكلام فيه إلى الشيخ علي الذي يصفه الرافعي بأنه: «الجبل الباذخ الأشم في هذه الإنسانية التي يتخبطها الفقر بأذاه»، وقد لقي هذا الكتاب احتفالًا كبيرًا من أهل الأدب حتى قال عنه أحمد زكي باشا: «لقد جعلت لنا شكسبير كما للإنجليز شكسبير، وهيجو كما للفرنسيين هيجو، وجوته كما للألمان جوته».

٦- **رسائل الأحزان**: من روائع الرافعي الثلاثة؛ التي هي نفحات الحب التي تملكت قلبه وإشراقات روحه، وقد كانت لوعة القطيعة ومرارتها أوحت إليه برسائل الأحزان التي يقول فيها: «هي رسائل الأحزان لا لأنها من الحزن جاءت؛ ولكن لأنها إلى الأحزان انتهت؛ ثم لأنها من لسان كان سلمًا يترجم عن قلب كان حربًا؛ ثم لأن هذا التاريخ الغزلي كان ينبع كالحياة وكان كالحياة ماضيًا إلى قبر».

٧- **السحاب الأحمر**: وقد جاء بعد رسائل الأحزان، وهو يتمحور حول فلسفة البغض، وطيش القلب، ولؤم المرأة.

٨- **أوراق الورد.. رسائله ورسائلها**: وهو طائفة من خواطر النفس المنثورة في فلسفة الحب والجمال، أنشأه الرافعي ليصف حالة من حالاته ويثبت تاريخًا من تاريخه، كانت رسائل يناجي بها محبوبته في خلوته، ويتحدث بها إلى نفسه أو يبعث بها إلى خيالها في غفوة المنى، ويترسل بها إلى طيفها في جلوة الأحلام.

٩- **على السَّفُّود**: وهو كتاب لم يُكتب عليه اسم الرافعي وإنما رمز إليه بعبارة إمام من أئمة الأدب العربي؛ وهو عبارة عن مجموعة مقالات في نقد بعض نتاج العقاد الأدبي.

الرافعي ومعاركه الأدبية:

كان الرافعي ناقدًا أديبًا عنيفًا حديد اللسان والطبع لا يعرف المداراة، ولا يصطنع الأدب في نضال خصومه، وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس، وكان في حرص على اللغة كما يقول: «من جهة الحرص على الدين إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء لا منفعة بأحدهما إلا بقيامهما معًا».

وكان يهاجم خصومه على طريقة عنترة، يضرب الجبان ضربة ينخلع لها

قلب الشجاع، فكانت له خصومات عديدة مع شخصيات عنيدة وأسماء نجوم في الأدب والفكر والثقافة في مطلع القرن، فكانت بينه وبين المنفلوطي خصومة ابتدأها هذا الأخير بسبب رأي الرافعي في شعراء العصر، وكانت له صولات مع الجامعة المصرية حول طريقة تدريس الأدب العربي، وجولات أخرى مع عبد الله عفيفي وزكي مبارك. على أن أكثر معاركه شهرة وحدة هو ما كان بينه وبين طه حسين، وبينه وبين العقاد، بل لعلها أشهر وأقسى ما في العربية من معارك الأدب.

خصومته مع طه حسين:

كانت هذه الخصومة بسبب كتاب طه حسين «في الشعر الجاهلي» الذي ضمَّنه رأيه في أن جُلَّ الشعر الجاهلي منحول، وهي مقولة خطيرة تنبَّه لها الرافعي؛ فحمل عليه حملة شعواء في الصحافة المصرية واستعدى عليه الحكومة والقانون وعلماء الدين، وطلب منهم أن يأخذوا على يديه وأن يمنعوه من أن تشيع بدعته بين طلاب الجامعة، وترادفت مقالاته عاصفة مهتاجة تفور بالغيظ والحمية الدينية والعصبية للإسلام والعرب، كأن فيها معنى من معاني الدم، حتى كادت هذه الحملة تذهب بـ«طه» وشيعته؛ إذ وقف معقود اللسان والقلم أمام قوة قلم الرافعي وحجته البالغة، وقد أسرَّ «طه» هذا الموقف للرافعي، فما سنحت له سانحة ينال بها من الرافعي إلا استغلها كي يرد له الصاع صاعين، غير أن الرافعي كان يقارعه حجة بحجة ونقدًا بنقد حتى توفي رحمه الله.

خصومته مع العقاد:

وكان السبب فيها كتاب الرافعي «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» إذ كان العقاد يرى رأيًا مخالفًا لما يرى الرافعي، وقد نشبت بينهما لذلك خصومة شديدة تجاوزت ميدانها الذي بدأت فيه، ومحورها الذي كانت تدور عليه إلى ميادين

أخرى؛ جعلت كلا الأديبين الكبيرين ينسى مكانه، ويغفل أدبه ليلغو في عرض صاحبه، ويأكل لحمه من غير أن يرى ذلك معابة عليه، وكان البادئ الرافعي في مقالاته «على السفود» التي جمعها له في كتاب صديقه إسماعيل مظهر، وتوقفت المعركة بينهما فترة وجيزة ما لبثت أن اشتعل أوارها مرة أخرى عندما نشر العقاد ديوانه «وحي الأربعين» فكتب الرافعي نقدًا لديوانه، تلقفه العقاد بالسخرية والتهكم والشتم والسباب، ولم تزل بينهما الخصومات الأدبية حتى توفي الرافعي رحمه الله.

وفاته:

توفي الرافعي في مايو سنة (١٩٣٧) عن عمر يناهز (٥٧) عامًا، وكان الرافعي إذ ذاك ما يزال يعمل كاتبًا ومحصلًا ماليًّا في محكمة طنطا، وهو العمل الذي بدأ به حياته العملية عام (١٩٠٠م).

مقدمة الطبعة الأولى للمؤلف

لما كتبتُ «رسائل الأحزان» في فلسفة الجمال والحب كنت في تدبيره والرأي فيه كمن يؤرخ عهدًا من شبابه بعد أن رقَّتْ[1] سِنَّه وذهب يقينه من الدنيا ولم يبق إلا ظنه، فهو يكتب والكلام يحن لديه، والقلم يئن في يديه، وكل وصف جاء به من الشباب قال: رحمة الله عليه! وكنت أتعلق بأطراف اللغة التي فرت من الحياة معانيها، وذهب نورها وظلامها في أيامها ولياليها، فكان قلمي هو الذي يكتبها ولكن قلبي هو الذي يُمليها.

لغة الأحلام التي تُعَبِّر عن الحقائق على نحو ما وقعت يومًا، لا على نحو ما تقع كل يوم. فهي تترجم للحياة في زمن من العمر تاريخ هذه الحياة نفسها في زمن آخر، وترجع الإنسان كله لبقيته الباقية، وتأتي في الكلام لغير جدال كما تأتي الأجوبة القاطعة على أسئلتها.

وهي لغة الماضي التي تحمل ما حملت عليها لأنها صافية كالحق، منزهة عن الريب كالواقع؛ فإذا وصفت بها الخير كانت كالمرآة المجلوة أشرق فيها وجه جميل فملأ صفاءها جمالًا وفتنة؛ وإذا صورت بها الشر كانت كالمرآة ووجه الزنجي يملؤها سوادًا، ولكنه لا يطمس على شعاعها، وتضيف إلى سواده لمعان نورها ما دام فيها.

* * *

كتبته بلغة الأحلام، والأحلام هذه إنما هي بعض ما مات منا أو ما مات لنا؛ فإن استحال رجوعنا في هذا العمر عودًا على الماضي فهي رجوع الماضي إلينا؛ ومن ثم كان في لغتها شيء ظاهر من روعة الخلق، وكانت لها معانٍ كأنها راجعة

---

(١) شاخ وهرم.

من سفر بعيد إلى شوق طال به الصبر.

كتبت كتابة قال الغافلون: إني أتكلف لها خيالًا ورواية، وقال العاشقون: إنها كلام قلوبهم، وقال الذين يفهمون الكلام: إنه هو في كلامه.

ولقد كنت من نفسي يومئذ كمن لو ضربه الحب بقشة لجرحه جُرحًا يدمي، وكنت أكتب عن ساحرة تبسم حتى لتظن أنها لم تؤت وجهًا تعبس به، ثم تكون مع ذلك شر ما هي كائنة من حيث لا تظن أنت بها إلا الذي هو خير وأهدى.

وكنت في ذلك الكتاب شاعرًا، وحب الشاعر لا يخلو من الوزن، وكنت متفلسفًا، وهيهات إن أصبت الحب أيها الفيلسوف إلا في امرأة معقدة، يؤلفها الله تأليفًا من العسر بين فهمك ومعانيها؛ فلا جرم كان الكِتَابُ في نوع من الحب المتألم، لا يكون مثله إلا بين اثنين مسح الله يده على وجه أحدهما، ثم مسح يده على قلب الآخر، ثم تراءيا بعد، فما لبث أن أشرق الأثر الإلهي على الأثر، ووقع القضاء في الحب على القدر.

ألا إن كل باب يفتح ويغلق بمفتاح واحد هو يغلقه وهو يفتحه، إلا باب القلب الإنساني؛ فقد جعل الله له مفتاحين: أحدهما يغلقه ثم لا يغلقه سواه، وهو مفتاح اللذات؛ والآخر يفتحه ثم لا يفتحه غيره، وهو الألم.

* * *

كنت أستوحي «الرسائل» من تلك النفس التي طارت بي طيرتها البطيء وقوعها؛ فإني لأستعر[1] بها فكرًا وأشتعل منها خيالًا، وكنت أرى الفصول تخلص في يدي حين أكتبها كما تخلص سبائك الذهب بعناصرها لا بالصناعة.

---

(١) يستعر: يلتهب.

وكان هذا القلم كالحديد إذا أحمى عليه: ليست يد لمسته من أيدي المعاني إلا وضع فيها سمة النار، ثم جاء الكتاب وما أكاد أصدق أن الزمن مر به، وتم قبل أن يتم القمر دورة شهر واحد، فنبهني ذلك إلى أن أستوفي الكلام في الحب استمدادًا من أرواح أخرى، فوضعت هذا «السحاب الأحمر».

وقد استوحيتُه من أرواح فيها الحبيب والبغيض والصديق والمظلوم والظالم لنفسه، ومن عقلُه قلبُه، ومن حبُّه منفعته، وفيها أضعف ما عرفت من العقول وأقواها؛ فمن هذه السماء توكفت هذا السحاب. وإني لأشهد أني في بعض فصوله كنت أحامي عن الحب أن ينتقص، فأدير الكلام على ذلك فيلتوي، ثم أراه لا ينقاد ولا يتابع إلا على خلاف ما أريد؛ فإذا أخذت في المذهب الذي يعن[1] لي اتفاقًا وعرضًا، تحدر الكلام تحدر الدمع من حيث لا يملك أحد أن يفيضه أو يكفه؛ لأنه عند أسبابه الباطنة.

وفي فصل «الشيخ علي» خاصة كانت روح هذا الرجل الطبيعي كأنها هي التي تكتب، وكان مريدًا على طبعه وخلقه، فما ملكت معه محاماة ولا دفعًا. وفي فصل «الشيخ محمد عبده» كنت أشعر كأني مرتقٍ في صعداء مطلبها طويل بعيد، فلا أخطو خطوة إلا مدافعًا جاذبية الأرض وشاعرًا بأني أحمل نفسي حملًا، وكنت كالذي يطأ على أضراس الجبل الصخري وأسنانه، متئدًا حذرًا أن يزل فيسقط سقوط اللقمة الممضوغة، ولا ينفعه في الصخر وشموخه وتعاليه أنه كان في عريض السهل عدَّاء لا يلحق.

من الحب رحمة مهداة، فإذا كنت مع الله كانت كل أفكارك صورًا روحانية؛ فأنت كالملك: هو في الأرض ما هو في السماء. ومن الحب نقمة مسلطة، فإذا كنت مع الشياطين كانت كل أفكارك صورًا حيوانية؛ فأنت كهذا المتجهم

---

(١) يعن لي: إذا عرض.

الطياش، الذي لو نظر في كل مرائي الدنيا ما رأى في جميعها غير وجه القرد؛ لأنه القرد.

والناس في هذا الحب أصناف: فواحد يجاهد زلات قد وقعت، وهو المحب الآثم؛ وآخر يجاهد شهوات تهم أن تقع، وهو المحب الممتحن؛ وثالث أمن هذه وهذه وإنما يجاهد خطرات الفكر، وهو المحب ليحب فقط؛ ورابع كالقرابة والصديق: عجز الناس أن يجدوا في لغاتهم لفظًا يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الأشياء إليها في المعنى، وهو الحب. وعلى الثالث وحده بنيت «رسائل الأحزان»، وعلى بعض الرأي في الباقيات كسرت هذا الكتاب.

* * *

من للمحب ومن يعينه ... والحب أهناه حزينه!
أنا من عرفت سوى قسا ... وته فقولوا كيف لينه؟
إن يقض دين ذوي الهوى ... فأنا الذي بقيت ديونه
قلبي هو الذهب الكريـ ... ـم فلا يفارقه رنينه
قلبي هو الألماس يعـ ... ـرف من أشعته ثمينه
قلبي يحب وإنما ... أخلاقه فيه ودينه

يا من يحب حبيبه ... ويظنّه أمسى يهينه
وتعفّ منه ظواهر ... لكنه نجس يقينه
كالقبر غطته الزهو ... ر وتحته عفن دفينه
ماذا يكون هواك لو ... كل الذي تهوى يكونه؟
دع في ظنونك موضعًا ... إن الحبيب له ظنونه
وخذ الجميل لكي تزيـ ... ـن الحسن فيه بما يزينه
إن تنقلب لص العفا ... ف لمن تحب فمن أمينه؟

مـــا لـــذة القلـــب المدلـــ ... لـــه لا يطـــول بـــه حنينـــه؟
مـــا لـــذة العقـــل المحـــ ... ب ولم يجننـــــه جنونـــــه؟
الحـــب ســـجدة عابـــد ... مـــا أرضـــه إلا جبينـــه
الحـــب أفـــق طـــاهر ... مـــا إن يدنـــسه خئونـــه
أفـــق الملائـــك نفـــسه ... في البـــدء كـــان لـــه لعينـــه
ويـــلي عـــلى متـــدلل ... مـــا تنقـــضي عنـــي فنونـــه
كيـــف الـــسلو وفي فـــؤا ... دي لا تفـــارقني عيونـــه؟

مصطفى صادق الرافعي

كلمة

كانت درتان متجاورتين في جلية على صدر حسناء؛ وكلتاهما يتيمة إلا من أختها، تمج ذلك الشعاع النادر الذي جاءه الحسن من كونه ضوءًا لم يولد من شمس ولا من قمر، ولكن من ظلمات البحر، فتناجتا يومًا. وكانت الجميلة قد استوفت كل زينتها وحملت الدرتين على صدرها كأنهما عينا قلبها الثمين، فقالت إحداهما للأخرى، وهي تشير إلى هذه الفتَّانة: «انظري انظري، ما أحسن لؤلؤتنا!».

صارت اللؤلؤة في هذا المنطق الشعري هي امرأة الأعماق المظلمة، وعادت المرأة الحسناء لؤلؤة الأعماق السماوية المضيئة؛ فلا شيء يريد أن يكون كما هو في نفسه؛ إذ لا يزال موضع الفصل من حكمة الله خفيًّا، لا يُرَى بل يُتوهَّم، ولا يُستيقن بل يُظن. وكان خفاء هذه الحكمة في سمواتها إيجادًا للخيال في الإنسان حتى لا يظل أبدًا في حيوانيته، ولكن هذا الخيال نفسه كثيرًا ما أضاف إلى الإنسان حيوانية أخرى.

ولو كشف لك عن الحقيقة لرأيت أقبح ما في كل شيء أن لا يبرح أبدًا محبوسًا في حقيقة لا يجاوزها؛ ومن ثم خفَّف الله عن الإنسان فأودع فيه قوة التخيل يستريح إليها من الحقائق. فإذا ضجر أهل الخيال من الخيال، لم يصلحهم إلا الحب؛ فهو وحده ناموس التطور للقوة المتخيلة، ولن تجد في الأشياء العجيبة أعجب منه، حتى كأنه أم تلد؛ فالمرأة هي تلد الإنسان ولكن حبها يلد النابغة.

* * *

وليس يقع التعجب من الأمر لأنه عجيب في نفسه، بل لأنه متصل من

الإنسان بروعه[١] أو بعقله أو بهواه أو بمطامعه؛ فإن دهش الورع أو تحير العقل أو اشتهى الهوى أو تمكن المطمع من النفس، فهذه هي الألوان الأربعة التي تصور منها الطبيعة الإنسانية كل معاني التعجب. والذي هو أعجب من جميعها أن الطبيعة لا تحتاج إلى جميعها في تصوير شيء إلا واحدًا، هو تصوير الحب الصحيح في قلب إنسان.

فهذا الحب ليس حقيقة واحدة عجيبة، بل هو أربع حقائق داخل بعضها بعضًا، فلا يتميز لون منها من لون منها، وما حقيقة الحب الصحيح إلا امتزاج نفسين بكل ما فيهما من الحقائق، حتى قال بعضهم: لا يصلح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر: يا أنا؛ ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين -حين يقع- أعنف ما في الخصومة؛ إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة. وأكبر خصيمين في عالم النفس: متحابان تباغضا!

وللحب العجيب جنس من النساء عجيب، خلقن جواسيس على القلوب يدخلن فيها ويخرجن منها، وقلما تجسست الواحدة منهن إلا لتفضح للدنيا أسرار روح عظيمة. وهذا الجنس تهيئه الطبيعة تهيئة المادة السحرية، وتولد المرأة منه مرتين؛ فإذا هي انحدرت إلى الدنيا طفلة جعلت تأخذ في دمها الجذاب من شعاع الشمس يتوهج، ومن نور القمر يتندى، وذهبت تنمو في ظاهرها نموًّا وفي باطنها نموًّا غيره، حتى إذا بلغت مبلغها وانبعثت ملء شبابها، آن لها أن تولد الثانية، فولدت في قلب رجل!

والعجيب أنها في الولادة الأولى يكون أول وجودها هو أول وجودها؛ أما في الثانية فذلك أول فنائها؛ لأن المرأة متى حلت من قلب الرجل محلًّا، جعل يفنيها معنى في معنى حتى تفرغ، فلا يبقى منها إلا ذكرى زمن مضى.

---

(١) بقلبه وخاطره.

وكل امرأة من هذا الجنس هي معجزة عقلية ما دامت مخبوءة في الشعاع السماوي من جمالها، وما دام هذا الشعاع يفعل فعله الذي عرفه الناس أوضع ما عرفوه في أديانهم وعقائدهم، وفيما أنزلوه منزلة الأديان والعقائد.

وآية مصداق[1] هذا الإعجاز في المرأة الساحرة المحبوبة ذلك النوع من الحب، أنه بينا يكون محبها رزين الطبع وازن الرأي كالجبل الراسخ الوطأة؛ إذا هو من سخافة رأيه في بعض أهواء الحب ونزعاته كأنه جبل يطير بألف جناح، وقد ملأ الخوافق بين السماء والأرض أوهامًا سحرية.

وهنا معضلَة الحب التي لا حيلة في فهمها ولا في تقريبها إلى الفهم، وهي تثبت أن العاشق يعطى في ناحية خياله قبل الناس جميعًا؛ ولكنه ينتقص من ناحية عقله مع حبيبته؛ فهما سحران تظاهرا.

ولا يشبه تلك المعجزة إلا أن ترى إنسانًا يقوم على ساحل البحر الملح فيلقي فيه رطلًا سكرًا، ثم يتذوق البحر فإذا هو في مذاقه وفي رأيه وفي حكمه شراب سائغ، كأنما ألقى الرجل فيه وزن كرة الأرض من هذا الطعم اللذيذ الحلو، ومع ذلك فهو عاقل فيما عدا ذلك!

---

(١) برهان.